الشعراء

من بين الشعراء الستة الذين حصلوا على جائزة نوبل من عام ١٩٨٠ وحتى عام ١٩٩٢ هناك ثلاثة منهم ينتمون إلى الكتلة الشرقية – سابقًا – مولدًا وثقافة ، وبين هؤلاء الثلاثة ، وجميعهم معارضون للنظام الشيوعى ، هناك اثنان اختارا أن يهاجرا من بلادهما وأن يعيشا فى الولايات المتحدة ويحملان جنسيتها . وقد عرف هذان الكاتبان بأنهما منشقان على النظم السياسية ، فى بلادهما ، أما الشاعر الثالث ، ياروسلاف سيفيرت ، فهو معارض لسياسة بلاده ، ولكنه لم ينشق خارج حدود تشيكوسلوفاكيا .

ورغم أنه من بين حيثيات منح الجائزة عدم الحكم على الفائز من ناحية انتمائه السياسى ، إلا أن الجائزة قد منحت دائما للمنشقين دون غيرهم من أبناء بلادهم ، خاصة بعد أن اشتدت الحرب الباردة بين الشرق والغرب فى السبعينيات والثمانينات ، فبعد الكسندر سولينتسين ، حاز نفس الجائزة فى الثمانينات الشاعر البولندى المنشق شيزلاف ميلوش ، ثم الروائى البلغارى المنشق إلياس كانيتى ، والشاعر التشيكى ياروسلاف سيفرت ، ثم الشاعر الروسى المنشق يوسف برودسكى .

والمقصود بمعنى منشق هنا أنه يعيش فى الغرب ، فبينما اختار كانيتى بريطانيا . فإن بقية الأسماء اختارت الولايات المتحدة ، وقد ظلت وسائل الاعلام تتعامل معهم من خلال وجهى العملة ، وذلك حسب الوجه الذى تحب أن تتعامل معه ، فميلوش يعمل مدرسًا للأدب البولندى فى الجامعات الأمريكية ، ويعمل برودسكى مدرسًا للأدب الروسى فى نفس الجامعات .

وعندما حصل ميلوش على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٠ تعاملت معه الصحافة الأوربية على أنه شاعر بولندى رغم أنه كان فى تلك الفترة يحمل الجنسية الأمريكية .

وميلوش من مواليد ليتوانيا فى عام ١٩١١ ، كانت ليتوانيا فى تلك الفترة جزءا من بولندا التى تقع بالتالى تحت سيطرة روسيا ، وقد عاش ميلوش طفولته ، بعد ذلك فى ليتوانيا المستقلة . حيث أنها عرفت الاستقلال لأول مرة فى التاريخ بين عامى ١٩١٨ و١٩٤٠ . أى عقب نهاية الحرب العالمية الأولى وبعد إعلان الحرب العالمية الثانية ، وقد درس شيزلاف فى مدرسة سيجموند – أوجست ، ثم درس القانون فى جامعة فيلنو عاصمة ليتوانيا والتى ضمتها قوات الحلفاء بعد ذلك إلى بولندا .

فى عام ١٩٣١ انضم ميلوش إلى حركة الأدب الطليعى وأصبح واحدًا من كتاب مجلة « الشعلة » ، وهى إحدى المجلات الشهيرة فى بولندا ، وما ان اندلعت الحرب العالمية الثانية حتى أصبح شاعر المقاومة ، فنشر مجموعة من القصائد ضد النازية تحمل عنوان « الأغنية الخفية » ، ولكن ما ان انتهت ، واصبحت بولندا تحت لواء الكتلة الشيوعية حتى وجد نفسه فيه ، بل ويكتب من أجل هذا النظام الجديد ديوانه « التحية » . ثم أصبح رجلاً من رجال هذا النظام فعمل ملحقًا ثقافيا لبولندا فى كل من واشنطن وباريس بين عامى ١٩٤٦ و١٩٥٠ ، وفى عام ١٩٥١ بدأت الخلافات بينه وبين بلاده فهاجر إلى باريس ، وراح يشارك فى تأسيس مجلة مناهضة للشيوعية تحمل عنوان « ثقافة » ، وفى باريس أصبح من أوائل المنشقين الذين احتضنتهم المدينة فى بداية الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، فنشر فى عام ١٩٥٣ مجموعة من المقالات فى كتاب يحمل عنوان « الفكر المخلوب » كتب مقدمته الفيلسوف كارل ياسبرز ، ثم نشر رواية تحمل اسم « استلاب السلطة » مُنح من أجلها جائزة الأدب الأوربى فى نفس العام .

شيزلاف ميلوش - ١٩٨٠

وقد تنوع نشاط ميلوش بين الشعر والرواية ، ففى عام ١٩٥٥ نشر ديوانه « ضوء النهار » ثم فى العام التالى نشر روايته « على شواطئ عيسى » ، وفى عام ١٩٦٠ رحل إلى الولايات المتحدة ليقوم بدراسة الأدب السلافى فى جامعة بركلى بكاليفورنيا ، وفى أمريكا قل نشاطه الإبداعى بشكل ملحوظ ، فطوال عشرين عامًا لم ينشر سوى القليل من الكتب . منها مقالات تحمل عنوان « أوروبا الأخرى » بمثابة سيرة ذاتية للكاتب ، ثم مجموعة مقالات أخرى عام ١٩٧٧ تحمل عنوان « أرض الروض » ، ثم جمع قصائده المتناثرة فى عام ١٩٨٠ تحت عنوان « ابن أوروبا » ، وفى عام ١٩٨٧ نشر مقالات أخرى تحمل عنوان « إمبراطور الأرض » .

حصل ميلوش على جائزة نوبل بصفته أمريكى ، فى عام ١٩٨٠ ، كان الكاتب قد حصل على الجنسية منذ عشر سنوات ، وكان قد غادر بلاده قبل ذلك بثلاثين عامًا .

ولأن أغلب الكتاب المنشقين يكتبون عن بلادهم الذين هاجروا منها ، فإن ميلوش قد فعل ذلك بالطبع بدافع الحنين الجارف إلى هذه البلاد التى تركوها ولم يعودوا إليها أبدًا ، كى يعيشوا فيها ، حتى بعد انتهاء الشيوعية ، ولكن لأن القارئ فى الغرب ، والنظام الغربى نفسه ، قد وضعهم فى هذا الإطار دون غيره ، لذا فهو لا يخرج منه قط وليس عليه أن يؤدى دورًا غيره .. لذا فإن ميلوش يؤكد فى مقدمة كتابه « إمبراطور الأرض » أنه « يكتب عن بولندا ، وليس عن شىء آخر غير بولندا » ، وهو عندما يريد الكتابة عن وطن آخر فهو يختار أن يجعل هذا الوطن خياليًا . غير موجود على الخريطة مثلما فعل فى كتابه « أرض السرو » .

وقد حصل ميلوش عن جائزة نوبل كشاعر رغم رواياته المنشورة ، وهو فى كتابه « ميلوش بقلمه » يرى أنه : « مسكون بمختلف الشياطين ، ومختلف الأشخاص الذين يقلقون راحتى » .

وفى جريدة لوموند – ١٥ مايو ١٩٨٧ – تقول نيكول زاندا : ان من يقرأ شعر ميلوش ولو مترجمًا لا يخطئ الإحساس بأنه بمثابة صدى بعيد للأصل البولندى فيه ، فاللغة البولندية تفسح لشعر غير مقفى لكنه ذو بنية إيقاعية متينة ، لذا نقرأ ميلوش وكأنه يسلم نفسه فى الشعر لإيقاع تنفسه وخفقان قلبه ، إنه يقول عن شعره فى « ميلوش بقلمه » بأنه تغريمة قبل كل شىء ، ولأنه على ، على درجة من الحساسية تجاه الإيقاع لذا فإنه لا يستطيع أن يكتب بلغة سوى لغته .

وفى نفس الجريدة – ٢٤ مايو ١٩٨٥ – كتب جيرار كونيو أنه : « حسب الكاتب فإن الحنين هو جزء ضائع ، وهو سبب كل الحالات النفسية التى أصابته عبر إبداعه ، فهو دائمًا مهموم بحالة من الصفاء تؤرقها المشاعر الخاصة ، والصمت الذى تحوطه به الطبيعة » .

« من أنا .. و« من كنت » . كم أحفر بين هذين السؤالين مساحة شعرية متوسطة أزرع فيها فلسفتى ، أنا شاعر ولست فيلسوفًا ، كم أعبد الطبيعة كينبوع للسعادة والدهشة وأرفضها لآليتها التى لا ترحم » .

ويرى ميلوش أن الحدث « الشعرى » يتغير حسب كمية الواقع الذى يعانق وعى الشاعر ، وما يحوطنا هنا ، والآن هو أكثر ضمانًا ، ويمكن ألا يكون موجودًا ، والمرء دائمًا يصنع شعره بعد أن يرى نفسه فوق الأطلال .

ولأن ميلوش قد نال الجائزة كشاعر ، فيهمنا هنا أن نترجم عن الفرنسية بعضًا من أشهر قصائده اخترنا منها الترجمة الكاملة لقصيدة « طفل أوروبا » .

نحن الذين نرغب فى رقة النهار
ونحب أزهار الأشجار فى شهر مايو
أفضل من هؤلاء الذين فسدوا

نحن الذين نتذوق الطعام الغريب
ونعرف تماماً حلاوة الحب
أفضل من هؤلاء الذين فوق الأرض

نحن الذين جئنا من السعير خلف الأسلاك الشائكة
تكن عليها الرياح الحزينة العاتية
عبرنا المعارك مجروحين يملؤنا الألم
لقد ساعدنا التقدم والعلم

نحن نرسل الآخرين إلى الأماكن الواسعة
نهتف بصيحات عالية من أجل بقية المعركة
ما نلبث أن نتراجع عندما نفشل

لو أخترنا أن نموت بأنفسنا أو أن نميت
سوف نختار موتها ، ونفكر ببرود : أسرعوا .

لقد أغلقنا أبواب غرف الغاز . وسرقنا الخبز
عارفين أن الغد أسوأ من البارحة .

مثل كل البشر ، اكتشفنا الخير والشر
ولم يخترق علمنا شيء في الدنيا .

ينبئنا أننا أفضل منهم
هؤلاء الضعفاء ، السذج . الذين أهملوا حياتهم .

ومن قصيدة أخرى نقدم :

أطلق لحيتي الكثة وعلى عينيّ المنغلقتين
فإن أهدابي تتفتح على من يعرفون الثمن
أشياء بادية . صامتة .

لقد وجد الإنسان قلبه متسعا للكلمات
هربت من وطنى ومنزلى وأعبائى
ليس بحب المال ولا بأمل المغامرة
لا . أحس أننى غريب فوق السفن
يبدو وجهى كأنه لتاجر ، لجندى ، لمحام

لا أميز نفسى فى الحشود ، وأكرم نفسى
وفى حفل المراسيم . آكل ما يأكله الآخرون
ويكفى أن نقول ذلك بأنفسنا .

يهمنا أن نشير فى خاتمة حديثنا عن شيزلاف ميلوش أنه قد زار بولندا فى عام ١٩٨١ عقب فوزه بجائزة نوبل ، ثم قام بزيارة ثانية فى عام ١٩٨٩ ، وحول هذه الزيارة أجرت معه مجلة « لونوفيل أوبسرفاتور » فى ١٦ نوفمبر ١٩٨٩ حديثًا عن علاقته بكاتب بولندى يدعى الكسندر فات . قال فيه : إنه عند زيارته لبولندا وجد بلده تختلف : « لو فتحنا التليفزيون ، فلن نصدق أعيننا . هناك شىء غير واقعى وبالغ الغرابة بالنسبة لى ، فأنا أجد نفسى هنا وقد أصبح أصدقائى أعضاء فى الحكومة ، إنه رائع ، أليس كذلك ؟ كم أعرف ذكاءهم ونواياهم الطيبة ولكن هل سينقذون بولندا ؟ فى الحقيقة ، فإن التغييرات لم تغير البلد لدرجة النجاح .

وعن الشعر فى العصر الحديث قال ميلوش فى نفس الحديث ، نحن لا يمكن أن نكتب مثل بوشكين ، ولا يمكن أن نؤلف موسيقى مثل موتسارت ، وهذا خسارة ، لأننا لسنا أفضل من أجدادنا ، ولذا فإننى لا أعرف ماذا كانوا يملكون من طليعية بولندية كانت تحركهم ، لقد تُرجمتْ أعمال البولنديين دومًا كما ترجموا الأدباء الإنجليز والأمريكيين والفرنسيين وكل المفكرين الروس قد تعلموا البولندية كى يكتشفوا ما يكتبونه للغرب .

ياروسلاف سيفرت

حين حصل ياروسلاف سيفرت على جائزة نوبل عام ١٩٨٤ ، كان فى الثالثة والثمانين من عمره ، وهو بذلك أكبر من حصلوا على الجائزة سنًّا فى الثمانينات ، فهو من مواليد ٢٣ سبتمبر عام ١٩٠١ فى مقاطعة عمالية تابعة لمدينة براج ، وقد ظهرت موهبة الشاعر فى مرحلة مبكرة لدرجة أنه أصدر ديوانه الأول فى عام ١٩٢٠ تحت عنوان « مدينة باكية » ، وكان آنذاك أحد مؤسسى حركة الفريق الطليعى (ديجيتسيل) ، وقد أهدى هذا الديوان إلى الطبقة العاملة ، حيث ظل أمينًا لها يعبر عن تجارب شبابه بكتابة تعليمية اجتماعية تستوحى الفن العفوى والشعر الشعبى ، وتتأثر بالفن الثورى السوفيتى وبالماركسية .

ويقول الناقد العراقى محمد الجزائرى فى مجلة « فنون » : حين سافر إلى فرنسا اتصل بحركة الحداثة آنذاك (حركة دادا والسرياليين) ، ثم حين عاد إلى بلاده ارتبط بـ« بالشعريين » وكانوا سياسيًّا راديكاليين إلا أنهم – فنيًّا – دعاة الحرية فى الخيال ، والفن – بالنسبة لهم – كلعب فى ذاته ، إنهم رافضون ذات المهمة الأخلاقية ، السياسية ، وقد صدرت مجموعة الشاعر « على موجات الأثير » فى عام ١٩٢٥ لتكون خير دليل على تمرده الأول . الذى دفعه للسفر إلى الاتحاد السوفيتى فى نفس العام ، ليمتحن نفسه وقناعاته ، إزاء ثورة أكتوبر والصرامة المبدئية ، لكن رحلته تلك جعلته أشد انتقادًا وأكثر انفلاتًا ، فهل يحتفظ الرفيق ياروسلاف سيفرت بشيوعيته أم بعضويته فى الحزب ؟

وكان القرار المتوقع : أن طرد من الحزب التشيكى الشيوعى فى عام ١٩٢٩ .

وفى الثلاثينات أصدر سيفرت أعمالاً كلاسيكية المنحى متقاربًا فيها من لهجة مألوفة فى الأغنية ، وهى كنتاج بين الذروة فى الشعر التشيكى آنذاك : « تفاحة صدرك » ١٩٣٣ و « يدافيتوس » ١٩٣٦ . و « وداعا للربيع » عام ١٩٣٧ .

ياروسلاف سيفرت - ١٩٨٤

وسيفرت الذى نشر حوالى ثلاثين كتابًا شعريًا بينها كتبه التى أشرنا إليها إلى جانب « مظلة من بيكاديللى » ، و « نصب الطاعون التذكارى » . وسيرته الذاتية « كل جمال العالم » برز خلال الاحتلال النازى لبلاده بوصفه معبرًا عن الأمة التشيكية المقهورة ثم انزوى بعد عام ١٩٤٨ حين أبعد مجددًا .

ولم يعد إليه اعتباره إلا بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى ، وفى تلك الأثناء لم ينقطع عن جمهوره ، لكنه ظهر فى الساحة الثقافية بعد أن خلف « إدوار جولد شتوكر » فى أغسطس ١٩٦٨ رئيسًا لاتحاد الكتاب التشيك ، وكان من أوائل المنشقين وغير المتطابقين مع النظام ، ومن مؤيدى حركة دوبتشيك ، ومن أوائل الموقعين على بيان المثقفين المنشقين المعروف بميثاق الـ « ٧٧ » .

توقف إنتاج سيفرت لفترة من الوقت بسبب مشاكله مع السلطة عام ١٩٥٩ ، وظلت كتبه ممنوعة من النشر والتداول لمدة عشر سنوات ، وفى عام ١٩٧٩ بدأت تشيكوسلوفاكيا فى إعادة نشر أعماله من جديد ، وكان أيضا قد توقف عن الإنتاج الأدبى بسبب مرض طويل ألم به .

ومن المهم أن نشير أن سيفرت قد بدأ مجددًا لم يبتعد عن تقاليده الشعرية باندفاعه حادة أو استهانة ، كما أنه انتهى إلى تقليدية محترمة بعيدة عن التخلف أو المحافظة ، اللذين يقللان عادة من شأن التقليد ، يظل فى الاعتبار الأخير شاعرًا من فطاحل الشعر التقليدى المعاصرين والذين هم عادة قمم شعرية لا يخلو منهم بلد من بلدان العالم .

ومثلما كتب ياسين طه حافظ – الثقافة الأجنبية العدد الأول ١٩٨٧ – فإن لسيفرت ميزة يتفرد بها ، تلك هى أنه شاعر مرح قريب من التراث الشعبى ، ويتمتع بطفولة عذبة تتخلل أكثر أشعاره حزنًا ، تتكدر أحيانًا كدرًا

مفزعًا متحسسًا بدموعه فى القصيدة وتنطلق فرحة أحيانًا . فتسمعه يضحك من وراء السطور .

وعقب فوزه بجائزة نوبل أجرت مجلة تايم الأمريكية حوارًا مع الشاعر فى ١٧ ديسمبر ١٩٨٤ رد فيه حول سؤال عن عدم قابلية الأمريكيين لقراءة شعره قائلا : « شعرى من السهل فهمه ، إنه مقالات شعرية ، فى بداية عملى بالشعر كان يحتوى على العديد من السمات الغنائية ، والآن هو شعر فى ميزانه وقافيته » ويقول الشاعر : « إنه لم يتعلم شيئًا من السياسة ، وأن ما يهمه فقط هو الشعر فعلاقتى مع الشعر باردة . خاصة بعد وفاة ماساريك ، لقد أجبرتنى رؤى قوية ، وأصبحت أمتلك رؤى عميقة ، أنا رجل حساس ، وقابل للتعبير عن سلوك الشعب وأجده فى داخلى كمتحدث » .

ويهمنا هنا أن نرصد بعضًا من إبداع ياروسلاف سيفرت الشعرى مترجمًا عن مجلة « الثقافة الأجنبية – العدد الأول – ١٩٨٧ » والذى ترجمه ياسين طه حافظ :

سيرة .
كانت أمى .
إذا أرادت الكلام عن نفسها ،

تقول :
حياتى حزينة وهادئة .
دائمًا أسير على أصابع قدمىّ .
وإذا ما غضبت قليلا
وضغطت بقدمىّ على الأرض
ضجنى رنين أكواب والدتى

على خزانة الأطباق
فأضحك

قيل لى لحظة مولدى
دخلت فراشة مرفرفة عبر النافذة
واستقرت على سرير أمى
لكن فى اللحظة نفسها نبح كلب
فى باحة البيت
ظنت ذلك والدتى
علامة نحس

حياتى أنا طبعًا
لم تكن آمنة كحياتها
ولكن لو تفرست فيها اليوم
بأسى

وكيف كانت أطر صور فارغة
وكل ما كنت أراه حائطا متربًا ،
لأدركت أن حياتى الآن جميلة جدًّا

هنالك لحظات كثيرة لا أنساها
لحظات مثل زهرات متألقة
بكل الألوان والأشكال
حينما كانت الأمسيات مفعمة بالشذى
وبعناقيد العنب الأرجوانية

obeikandl.com

بحماسة قرأت الشعر
وأحببت الموسيقى
وتنقلت مندهشًا أبدًا
من جمال إلى جمال
ولكنى ، حين رأيت لأول مرة
صورة امرأة عارية
بدأت أؤمن بالمعجزات

حياتى توقفت بهدوء
كانت قصيرة جدًا
بالنسبة لسعة أشواقى
التى ما كانت لها حدود
قبل أن أعرف حياتى
دنت إليها نهايتها

سيأتى الموت ويرفس باب غرفتى
ويدخل
ويفزع اللحظة المرعبة
سأقطع نفسى
وأنسى أن أتنفس مرة أخرى .

الجدير بالذكر أن ياروسلاف سيفرت هو أول من رحل من الكتاب الذين فازوا بجائزة نوبل بين عامى ١٩٨٠ و١٩٩٢ ، بل هو الوحيد الذى رحل فى نهاية ديسمبر ١٩٩٢ .

obeikandl.com

وول سونيكا

رغم شهرة الكاتب النيجيرى وول سونيكا ككاتب مسرحى فى المقام الأول ، ورغم رواياته التى ساندت شهرته ، إلا أنه حصل على جائزة نوبل كشاعر ، فمن المعروف أن أكثر كتاب المسرح الذين حصلوا على الجائزة قد منحوا عن أنشطتهم الإبداعية الأخرى ، مثل صموئيل بيكيت التى حازها كروائى .

ومع ذلك ، فلا يمكن أن نرصد سونيكا كشاعر فقط ، بل علينا أن نرصده ككاتب قد تعددت الأنشطة الإبداعية التى يمارسها ، فسونيكا ، واسمه الكامل أكينو أند أولول سونيكا مولود فى ١٣ يوليو ١٩٣٤ فى « إيبوكوتا » بالإقليم الغربى النيجيرى ، لأبوين من قبائل « اليوروبا » لأب ينتسب إلى « الإيجيبو » وأم تنحدر من « الإيجيا » ، وقد تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة « سان بيتر » بين عامى ١٩٣٨ و١٩٤٣ ، ثم التحق بمدرسة النحو ، كما التحق بالكلية الحكومية فى « أبيدان » « عاصمة نيجيريا الغربية » ، ويقول د . إبراهيم الشوش فى مجلة الحرس الوطنى — ديسمبر ١٩٨٦ — إن سونيكا « ورث عن قبيلته تراثًا ضخمًا من الأحاجى والأساطير القبيلية انعكس على كتاباته ، فقد منحه ذخيرة ضخمة لا تنفد من الأخيلة والرموز ، وأكثر من ذلك منحه شعورًا بالثقة فى انتمائه ، وهى ثقة يفتقر إليها كثير من الكتاب السود ، وهذا يفسر إشاراته الحادة فى نقده للشاعر ليوبولد سنجور رائد حركة « الزنوجة الأدبية » : إن الزنجى لا يحتاج لأن يحمل زنوجته على كتفيه ويعلن عنها فى كل مكان » .

وفى كلية « أبيدان » بدأت موهبته فى الظهور فكان يكتب القصيدة والقصة القصيرة إلى إذاعة لاجوس فقامت ببثها ، وبعد أن انتهى من دراسته بكلية أبيدان عام ١٩٥٤ رحل إلى بريطانيا والتحق بجامعة « ليدز » ، وقد أهله هذا الأمر إلى الالتحاق بمسرح البلاط الملكى عام ١٩٥٧ حيث قام بالتمثيل فى أولى مسرحياته تحت عنوان « المخترع » ، وقد كان هذا المسرح

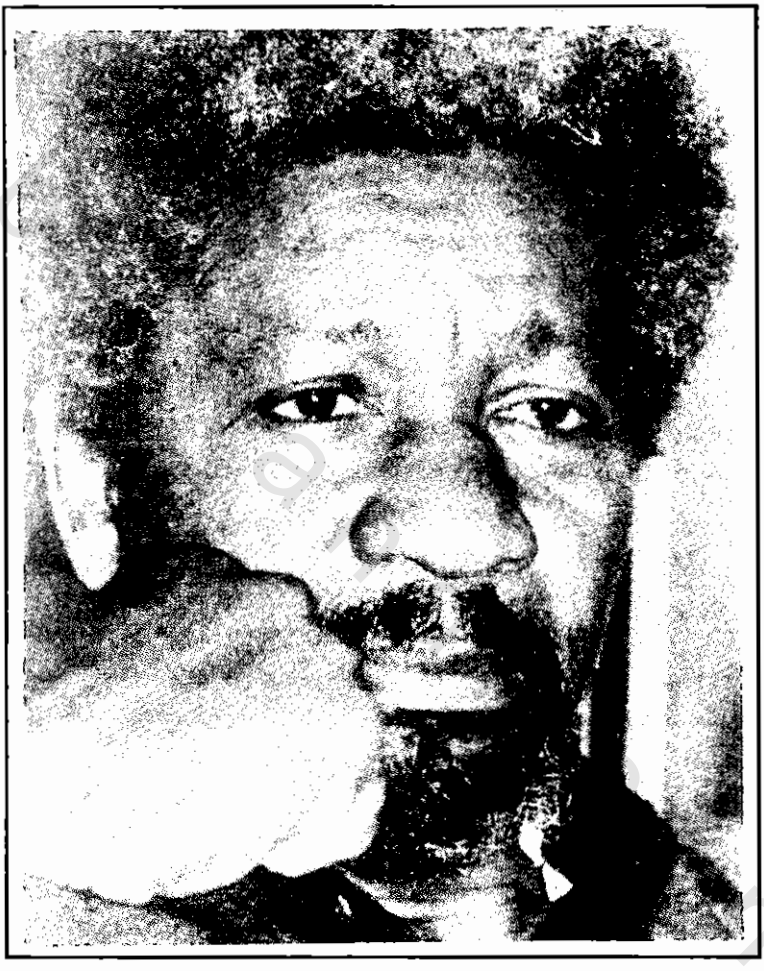

وول سويكا - ١٩٨٦

فى تلك الآونة طليعيًا ، وفيه شهد سونيكا ولادة المسرح البريطانى المعاصر على أيدى كل من صموئيل بيكيت ، وجون اسبورن وأروين ورسكر وهما من رواد مسرح الغضب .

عاد وول سونيكا إلى نيجيريا عام ١٩٦٠ من خلال منحة دراسية من مؤسسة روكفلر للبحث فى التراث المسرحى الأفريقى ، وكانت البلاد تعد نفسها للاحتفال بالاستقلال عن بريطانيا ، فكتب خصيصًا لهذه الاحتفالات مسرحيته الأولى « رقصة الغابات » ، وهى تناقش أفكار مجموعة متباينة من الأجيال يشتركون فى الاحتفال بالاستقلال : الأجداد الذين صنعوا الاستقلال ، ثم الأحفاد الذين سيقطفون الثمار ، واثناء الاحتفال يولد طفل يرفض عقب نزوله أن ينتسب إلى الماضى كلية ، ولكنه لا يرفض – فيما بعد – كل هذا الماضى ، بل يرى فيه بصيصًا من القبول والأمل .

وقد أشار الكاتب فى هذه المسرحية أن للأفارقة جوانب قوتهم ، وجوانب ضعفهم ، ويجب ألا يتجاهلوا قوتهم كما يجب ألا ينسوا ضعفهم ، لذا فهو يتخذ موقفًا محددًا من قضايا التراث ومن قضايا الواقع الأفريقى .

وقد فازت هذه المسرحية بجائزة مسابقة الأوبزرفر ، وعنها يقول ، بعد أن فازت بجائزة أخرى هى « الاستقلال » : « فى مسرحية « رقصة الغابات » حاولت استخدام عدد من الطقوس الدينية ، هناك طقوس حاولت استخدامها لتفسير أشياء بعيدة كل البعد عن المنظور التقليدى » ويرى جوريس سيلينيكس فى مقدمة العدد ٢١٧ من سلسلة من المسرح العالمى الكويتية أن هذه المسرحية تسلط الأضواء على رؤيا سونيكا المأساوية حول مصائر بنى الإنسان وآماله الطموحة فى انبثاق عهد جديد يأتى به استقلال نيجيريا ، وفى هذا استطاع سونيكا أن يوطد دعائم استقلاليته ككاتب يشارك بدوره فى بناء أمته فى الوقت الذى لابد فيه من الاحتفاظ بحقه فى التعبير عن معتقداته وآرائه بحرية حتى وإن أثار ذلك حفيظة الجهات الحكومية الرسمية .

وفى عام ١٩٦٠ أيضًا أنشأ سونيكا فرقة مسرحية قدمت مسرحيتها الأولى تحت اسم « الأقنعة » ، وكان ذلك بداية لنشاط مكثف شهده الكاتب طوال الستينات ، حيث تقلد العديد من المناصب الثقافية الهامة ، وقام بتنويع إبداعه ، فعمل فى الإذاعة كمخرج ، وأصدر دواوينه الشعرية فى لندن وأخرج المسرحيات التى كتبها فى نيجيريا ، ومن هذه المناصب أنه عمل مدرسًا بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة « أبيدان » ، وفى أكتوبر ١٩٦٣ عين رئيسًا للقسم الإنجليزى فى جامعة لاجوس ، وفى العام التالى استقال من منصبه ليكوّن جماعة للمسرح .

فى تلك الفترة قدم عددًا من المسرحيات من بينها « الطريق » عام ١٩٦٥ ، و « حصاد كانجى » عام ١٩٦٦ ، ثم « الأسد والجوهرة » .

وفى مجال الشعر نشر سونيكا مجموعة دواوين من أبرزها « مكوك فى السرداب » ، وهو الديوان الذى نال عنه جائزة نوبل ، وقد جاء فى البيان الذى أصدرته أكاديمية أستوكهولم أن شعر هذا الديوان هو « قمة النقاء الذهنى والاتصال البشرى والتمازج الطبيعى بين الغضب والسماحة ، ويتم هذا التمازج بنفس السلاسة التى يهجن بها سونيكا اللغة الإنجليزية بلهجة اليوروبا » ، ثم هناك ديوان « أوتار » الذى كتب مقدمته ليوبولد سنجور ، أما فى مجال الرواية فقد نشر « المفسرون » عام ١٩٦٨ ، و « سنوات الفوضى » عام ١٩٨٣ ، كما نشرت مذكراته تحت عنوان « ذكريات الطفولة » ١٩٨١ ، و« هذا الرجل ميت » .

وفى عام ١٩٦٥ دخل سونيكا السجن لأنه أعلن أن الانتخابات كانت مزورة ، ثم حبس مرة أخرى عام ١٩٦٧ لتعاونه مع الثوار فى بيافرا أثناء الحرب الأهلية ، وأودع سجن مدينة لاجوس وكان الحبس بمثابة الهام لتقديم روايته الأولى « المفسرون » ، وفى عام ١٩٦٩ صدر الأمر بالإفراج عن وول سونيكا بمناسبة عيد الاستقلال ، فتسلم عمله كمدير لمعهد الدراما بجامعة أبيدان ، ثم سافر إلى غانا ليعيش بعيدًا عن وطنه ستة أعوام ، ثم قام فى أوروبا وعمل ببعض جامعاتها ، وسافر إلى الولايات المتحدة ليعد مجموعة من الدراسات حول

فن المسرح عام ١٩٧٦ ثم عمل مدرسًا للأدب المقارن فى جامعة « إيف » بنيجيريا ، وفى عام ١٩٨٥ عين رئيسًا للمعهد الدولى للمسرح الذى تقوم منظمة اليونسكو بالإشراف عليه .

يقول د . محمد الشوش فى مجلة الحرس الوطنى – ديسمبر ١٩٨٦ – أن سونيكا قد ظل « مشدودًا بكل وجدانه إلى قضايا أفريقيا ، مناضلاً لا يقتصر نضاله على محاربة القهر الذى تمارسه حكومة جنوب أفريقيا العنصرية ضد السود ، وإنما يمتد وبصورة أعنف إلى كل ألوان الفساد والأعمال القهرية التى يمارسها السياسيون الأفريقيون أنفسهم ، ونضال سونيكا لا يعرف المهادنة ومع ذلك فهو يكره أن يصنف فى عداد السياسيين ، فهو يعتبر نفسه أديبًا وكاتبًا فى المقام الأول وليس سياسيًا ، كما يعتبر أن مواقفه الوطنية ونضاله ضد الفساد والدكتاتورية إنما تنبع من التزامه الوطنى ككاتب وليس كسياسى محترف » .

ويهتم سونيكا – كما جاء على لسان د . جوريس سيلينكيس – بالالتفات إلى مصادر الكتابة الأفريقية بدلاً من محاكاة نماذج وضعها أسياد غرباء ، وهو يصر أن تكون هذه الكتابة لها علاقاتها ومعناها إزاء الحقائق المتمثلة فى عالمنا المعاصر ، و« إن على الكتابة الأفريقية أن تمهد الطريق نحو إنسانية مشتركة ، لذلك فهو يوصف دائمًا بالمغالاة فى حبه للإنجليز ، وكرافض للرومانسية البلاغية القائمة على تعظيم العنصر الزنجى ، وهى الحركة التى بدأها محبو فرنسا فى الثلاثينات من كتاب جزر الهند الغربية وغربى أفريقيا الذين كان من أشهرهم كل من إيميه سيزار وليمون ديماس وليوبولد سنجور » .

وفى أعمال سونيكا الإبداعية هناك دائما مشكلة الانتماء والاختيار ، كما أن مسرحياته تبرز مسألة إيمان قبائل اليوروبا فى الأسلاف والأجداد ، وأيضًا مسألة الصراع بين القيم الجديدة والقديمة ، كما أن هناك مسألة الاختيار بين كل ما هو حضرى وريفى ، وفى مسرحيات الكاتب . نجد سونيكا يستخدم الأقنعة والطبول والشعائر الأفريقية ، فهو يقول أن من معتقدات اليوروبا :

« تتسم الحياة – انظر من المسرح العالمى العدد ٢١٧ – إلى ثلاث فترات زمنية متداخلة ، ما قبل الحياة والحياة وما بعد الحياة أو تلك التجربة التى يمر بها الذين لم يولدوا بعد والأحياء . والأجداد على التوالى » .

ويقول سونيكا عن دوره ككاتب مسرحى : « أعتقد أن واجبى الأساسى هو أن أقدم مسرحًا مختارًا ، لى التزام واحد هو التزام قِبَلْ المتفرجين ، إنهم لن يتركوا المسرح وهم يشعرون بالملل ، ليس مطلوبًا منى أن أثير العقول أو أن أوجه أو أعلم عكس برخت الذى أنا معجب به لأن ما يعجبنى فى بريخت هو نوع مسرحه ، وحيويته ، إنه يقدم مسرحًا ممتعًا للمتفرجين » .

وعن مسرح سونيكا يقول سيلينسكس : ان مسرحية « مجانين واختصاصيون » مثل جيد على مسرحيات سونيكا التى يمتد أثرها من الموضوعات المحلية والأحاديث الجارية إلى الموضوعات العالمية والإنسانية الخالدة . أما مسرحية « الموت وفارس الملك » .. فهى أكثر مسرحيات سونيكا طموحًا ولعلها أكثرها نجاحًا فى محاولة خلق مأساوية يوروبية ، وهى مسرحية زاخرة بالمعانى والجمال الشعرى ، طيعة لكل أساليب التفسير والتأويل ولا يمكن تضييق الخناق عليها ووضعها ضمن الأدب الذى يطلق عليه اسم « صراع الثقافات » ، كما حاول بض المخرجين التليفزيونيين أن يفعلوا » .

وعن عالم سونيكا الروائى ، يهمنا أن نقدم نموذج رواية « المفسرون » التى تدور حول مجموعة صغيرة من الشباب النيجيرى المثقف الذى يعمل بالترجمة ، يفسر كل منهم أعمال الآخرين . ويحاول أيضا تفسير أحداث المجتمع الذى يعيش فيه كما يشاء ، تقوم فيما بينهم علاقة قوية حتى فى أوقات اللهو ، وتظل هذه العلاقة قوية بعد أن يتخرجوا من الجامعة ، ورغم أن لقاءاتهم تقل إلى حد كبير إلا أنهم يتقابلون مرة فى كل عام يشربون ويتبادلون النكات ويحكى كل منهم تجربته الأخيرة .. فيكتشف زملاؤه ، إلى أى حد أصابهم التغيير ، فالتغيير الذى يحدث هنا للشباب هو نفس التغيير الذى يحدث

لنيجيريا ، ويقول عبد العزيز صادق فى مجلة أكتوبر – ٢٦ أكتوبر ١٩٨٦ – انه « يمكن أن نقول : إن « المفسرون » هجائية ذات أشواك حادة ، موجهة ضد سقم مجتمع المدنية النيجيرية ، أو المدنية الأفريقية ، ويحتفظ سونيكا – كعادته – بسخريته اللاذعة للنيل من مظاهر التصنع فى السلوك التى تتكلفها طبقة البرجوازية الجديدة فى نيجيريا » .

وأبطال « المفسرون » الذين يمثلون وطنهم ما بعد الاستقلال يعملون بمجتمع جديد عادوا من الخارج حالمين بالمعرفة ، ولكن مأساتهم أنهم لا يعون الحقيقة الشرسة وهى أن الجلود البيضاء لا زالت تتلاعب بأقدار الزنوج فى افريقيا .

« وهذه المجموعة الحالمة يلقى أعضاؤها الفشل الذريع فى تحقيق حلمهم ، وذلك أن الفساد الذى ينخر فى المجتمع بأسره أقوى من إرادتهم . ثم إن المشاكل الخاصة التى تعتصرهم تفلح فى الوقوف حاجزًا شاهقًا ، يحول بينهم وبين الشعب الذى سعوا إلى تنويره » .

ولسونيكا رواية أخرى هامة هى « سنوات الفوضى » كتب عنها كامل يوسف حسين – مجلة الأقلام أغسطس ١٩٨٧ – قائلاً إن الفساد يصل إلى « قمته الطبيعية فى درجة قصوى من العنف تسود للمجتمع . كما يصوره سونيكا . يصنعها تحالف العسكر ورجال الأعمال ، هنا يرتفع إبداع الكاتب النيجيرى إلى قمته ، فنرى أنفسنا بإزاء نسيج روائى عجيب ، ينال الحصاد الجماعى فيه أعمار البشر قبل أن يحين الأوان . « المؤسف » إن الحكام الجدد فلاحون مزيفون يزرعون الموت . موتًا داخليًا يتسلل فى الروح ، كنبتة سامة تنتشر فى أحشاء الأرض ، وهم يعملون على قتل مراكز أعصاب الشعب بأكمله حتى يقدمون بفخر بلادهم الهادئة كصورة مثالية للسلام » .

أما عن شعر سونيكا فقد كتبت جريدة لوموند الفرنسية – ٧ أكتوبر ١٩٨٦ – أنه دليل محدد لمتابعة هذا الكاتب المناضل فى الرحلة التى قام بها ، مجتازًا

كل المخاطر الخاصة حتى أطراف الخوف ، بإيقاع غربى ملىء بالوسوسة عند سونيكا ، فالرحيل عند الكاتب متعة ، ولكنه أيضًا مؤلم ، فهو المقدرة على الذهاب بعيدًا ، لذا يجب أن تتم التضحية فى دائرة أبدية من الموت والميلاد » .

وقد كتب سونيكا أكثر قصائده وهو فى السجن ، وخاصة ديوانه « مكوك فى السرداب » الذى نال عنه جائزة نوبل . فى قصيدة بعنوان « الوَد » يقول :

ست عشرة خطوة فى ثلاث وعشرين
هى كل الذى يربطه بالناس والحياة
رياضة يمارسها فى كل يوم
حتى لا تتدحرج خطاه نحو الجنون

وفى هذا الديوان تجاوز الشاعر حدود السجن ، الذى حبس داخل جدرانه إلى حدود بلاده ، فهو مثلاً ينادى أدباء العالم لينقذوا الإنسان من غبائه ، إنه فى ظل مرارة السجن . لا يهمه إلا الصدق والحقيقة ، لا يهمه إلا اتصال الإنسان ليبقى أبدًا مخلصًا لكل ما هو نقى ، ولا يهمه إلا تضحيات الإنسان لنبض الحقيقة ، وليبقى الصدق مشعلاً يضىء الطريق لكل الأجيال القادمة – راجع مجلة أكتوبر فى ٢٦ أكتوبر ١٩٨٦ – إنه يترجم كل هذه المشاعر فى قصيدته « زهور لبلدى » ، التى يبدؤها بدعوة ضد العنف وضد الحرب ، إنه يبدو كما لو كان يحيا فى بلد بعيد عن نيجيريا ، ويسأله أهل ذلك البلد الغريب : أين ذهبت زهوركم ؟ ويحس أن أسئلة الغرباء يتردد صداها فى وطنه نيجيريا . حيث ينبت الموت مكان الزهور التى اختفت . يقول :

رأيت .. أربع طائرات من صلب
هل تظن .. أن أذرعتها المفتوحة
مفتوحة .. تنثر الزهور الجبلية ؟

يوسف برودسكى

عندما حصل يوسف برودسكى على جائزة نوبل فى الأدب كشاعر عام ١٩٨٧ تضاربت الآراء كثيرًا من حوله ، ليس فقط لأنه يهودى والجائزة بدت شبه متخصصة لليهود فى السبعينات والثمانينات ، ولأنه ، ليس فقط ، منشق والجائزة منحت للمنشقين من كتاب الكتلة الشرقية ، ولم تمنح لمن يكتب لمناصرة أيدولوجية هذه البلاد ، ولكن البعض رأى أن برودسكى أصغر من أن يحصل على الجائزة ، كما أن شعره لا يرقى إلى مستوى الجائزة ، بينما رأى البعض الآخر أنه شاعر مبدع متميز يستحق أن يحصل فعلاً على الجائزة ، وأنه ليست هناك علاقة أبدًا بين النبوغ والسن .

ويوسف برودسكى مولود فى مدينة لينينجراد (سان بطرسبرج) فى الرابع من مايو عام ١٩٤٠ لوالدين فقيرين هما الكسندر وماريا برودسكى ، كان أبوه يعمل فى البحرية السوفيتية . أما أمه فقد تولت تعليمه وتلقينه الدروس وكل ما يجب أن يتعلمه الابن من أبيه وأمه على السواء ، فتبعًا لطبيعة عمل الأب ، فإنه كان يغيب كثيرًا عن المنزل ، لذا « فقد كانت أمى هى أول من علمنى أن هناك أدبا وسياسية ، ثم تعلمنا الكثير من الأشياء فى المدرسة ، عرفنا أن هناك زعيما اسمه لينين من مجلات الحائط قبل أن ندخل الفصول » .

وما لبث أن ترك يوسف المدرسة ، فقد وجد أن ما تعلمه فى المدرسة يكفى ، وكان عليه أن يعرف أشياء أخرى عن دوستويفسكى ، ثم تعرف على الشاعرة اليهودية آنا أخماتوفا ، وراحت تشجعه على كتابة الشعر ، ولأن عليه أن يعيش من عمل يرتزق منه ، فقد عمل مصورًا ، ثم بحارًا ومساعد باحث جيولوجى .

فى عام ١٩٦٣ نشر برودسكى قصيدة نظرت إليها السلطات كعمل خليع ، كما تعامل معها بعض الشعراء على أنها ضد النظام ، فقبضت عليه الشرطة وأرسلوا به إلى مستشفى الأمراض العقلية ، ثم أطلق سراحه ، إلا أن رجال الاستخبارات السوفيتية قاموا بالقبض عليه فى عام ١٩٦٤ بتهمة أنه « متطفل » وقضى فى معسكرات الاعتقال خمس سنوات فى مزرعة قريبة من البحر .

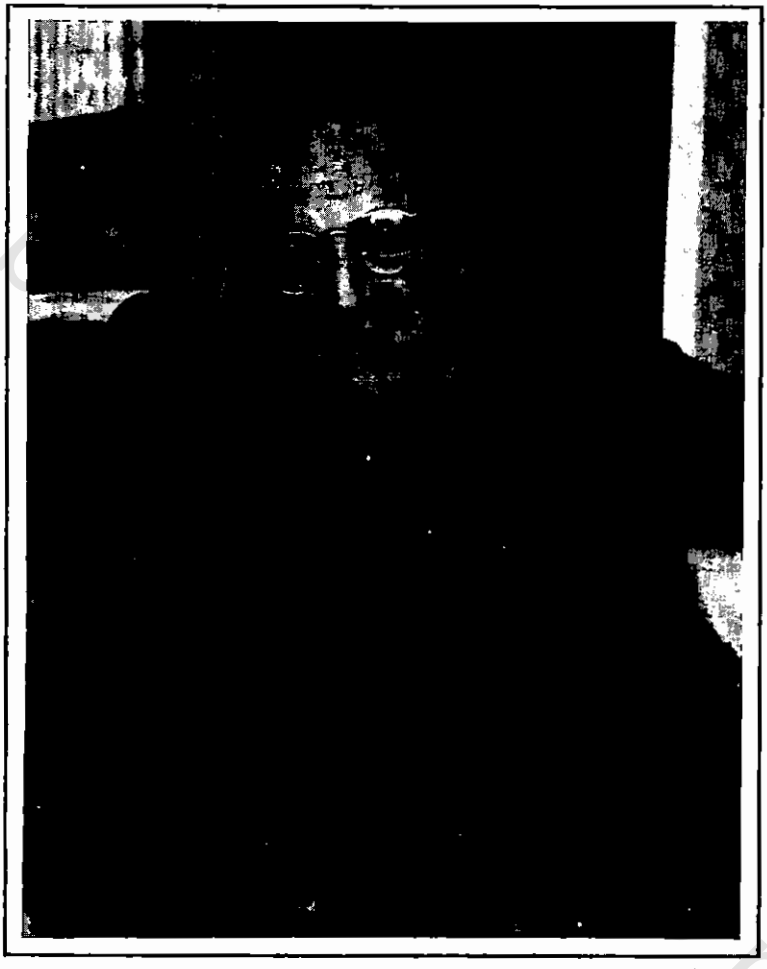

یوسف برودسکی - ۱۹۸۷

« كان علىّ أن أقضى يومى فى كسر الحجارة ، أما ليلى فقد كان لى أن أكتب فيه القصائد ، وأقرأ الآداب الأمريكية والإنجليزية » .

وفى عام ١٩٧١ تلقى برودسكى دعوتين منفصلتين بالهجرة خارج الاتحاد السوفيتى . « عندما سألنى وزير الداخلية السوفيتى عن سبب عدم موافقتى للهجرة إلى إسرائيل أجبته بأننى لست منشقًا على النظام قدر ما أنا شاعر » ، وفى الرابع من يونيه عام ١٩٧٢ سافر إلى فيينا حيث التقى بكارل رومز مؤسس دار نشر « أرويس » ومدرس الأدب الروسى فى جامعة ميتشجان الذى راح يدبر له وظيفة ومسكنًا فى الولايات المتحدة .

كان يوسف برودسكى قد نشر ديوانه الأول « محطة فى الصحراء » عام ١٩٧٠ ، ولكنه فى الولايات المتحدة وجد فرصة لنشر أعمال أخرى ، فى عام ١٩٧٧ نشر ديوانين هما « جزء من محاضرة » و« أشعار جديدة لاوكستا » ، ثم نشر له ديوان فى عام ١٩٧٨ يحمل عنوان « نهاية عصر رائع » ، أما آخر دواوينه فهو « أورانيا » ، وكلها مكتوبة باللغة الروسية ثم تمت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية ، أما سيرته الذاتية فقد نشرها عام ١٩٨٨ بعد فوزه بالجائزة تحت عنوان « بعيدًا عن بيزاش » باللغة الإنجليزية .

ويرى برودسكى أن الشعر هو نتاج للغة ، واللغة هى سلاح الشعر وليس العكس ، فاللغة أقدم منا وهى تتبعنا ، إنها كائن حى بحركتها ، انها اللغة التى تحكى الشعر ، ولذا فإننى لا أتوقف قط أن أكرر أن واجب الكاتب الأول نحو مجتمعه هو أن يكتب جيدًا ، وعلم الجمال هو أم الفنون ، وهذا ما قصده دوستويفسكى عندما أعلن أن الجمال ينقذ العلم .

« ليس التأمل هو المنبع الوحيد للشعر فالشعر موجود فى الهواء وليس تحت الأقدام والشعر ترجمة للوقائع الخيالية بلغة أرضية ، وما تراه فى الأرض ليس العشب والزهور ، ولكن الأمور التى تحد من وجودها توجد بين الأشياء ، وهى تتبع قانونًا علويًا ، كان باسترناك شاعرًا عظيمًا بالتفصيل ، كان يسمو نحو مثل

أعلى ، وعظمة الشاعر النموذجية ليست فى كونه بشر عند باسترناك ولكن عندما يتحول إلى ملاك ، وفى رأيى أن الشعر أمر آخر تمامًا » .

وقد واجهت الصحف برودسكى دومًا بأسئلتها التى ترى أنه قد بدأ كشاعر نصف موهوب ، لكن هناك تغيرات حدثت فى حياته جعلته موهوبًا بالفعل : « هذا يرجع للتجربة والخبرة فقد بدأت حياتى الحقيقية وأنا فى الخامسة عشر كان كل شىء ينيرنى » وكم غيرت مكان العمل لأننى أردت أن أعرف الكثير عن الناس وعن الدنيا » .

يرى برودسكى أن الشعر نوع من النشاط الإنسانى مثله مثل أى عمل آخر يمارسه الناس ويحصلون من أجله على أجر معلوم ، فالشعر مفيد للناس ، ولذا فهو يكتب الشعر وهو فى سن صغيرة .

ولم يثر برودسكى الأقاويل حوله فقط كشاعر وعن قيمته الإبداعية ، بل إن البعض قد ردد أن الشاعر قد استفاد كثيرًا من مسألة اعتقاله كى يكسب الكثير من التعاطف من قبل وسائل الإعلام الغربى ، فأى معسكر اعتقال هذا ، ذلك الذى يتعلم فيه السجين اللغة الإنجليزية ، ويترجم الكتب ، والحقيقة أن برودسكى لم يكن فى معسكر اعتقال حقيقى مثل ذلك التى نفى إليه الكثير من المنشقين فى الاتحاد السوفيتى فى سيبيريا وخاصة الكسندر سولينتسين ، بل كان محكومًا عليه أن يلزم مسكنه ، وأن يعمل أحيانًا فى المزرعة ، والغريب أن هذا العمل كان على هوى الشاعر الذى كان يعشق الطبيعة « كنت أشعر بالرضاء أننى أستيقظ فى ساعة مبكرة من الفجر كل يوم ، وكنت أحب انتظار شروق الشمس فوق الحقول ، وكنت أحب أيضًا ، فكرة أننى لست وحدى الذى يرى هذه الشمس ، وأن هناك الملايين من البسطاء فى البلاد يفعلون ما أفعل ، لم أعتبر أبدًا أن هذا عقاب ، قبل هذا كنت صبيًا فى مدينة ، لم أكن أشعر بالعرفان لشىء فى تلك الآونة ، أما الآن ومن أعماقى فإننى أشعر بذلك ، وعندما أفكر فى هذه الأمور فإننى يجب أولاً أن أنسى أن هذا هو حال الزراعة السوفيتية ، وبسبب العقاب المتباين ، فإن أحدًا لم يكن يفكر أن يفعل شيئًا لأيام عديدة ، وقد ظللت هكذا فى المنزل ، أعمل وأعمل » .

كما أن برودسكى قد أثار حوله التساؤل عن هويته كشاعر روسى ، فعندما حصل على جائزة نوبل فى عام ١٩٨٧ كان قد ترك بلاده قبل ذلك بخمسة عشر عامًا كان قد أنسلخ خلالها من الثقافة الروسية وكتب الكثير من أعماله بالإنجليزية ، وقد حصل على الجنسية الأمريكية ، وقد رد برودسكى على هذا الاتهام قائلاً : « أنا ككيان إنسانى لست سوى نتاج لروسيا والثقافة الروسية ، بالتأكيد رغم أننى لم أكن راضيًا بما فيه الكفاية عن ظروف الثقافة الروسية » .

كما دافع برودسكى عن نفسه بأنه لم يكن أبدًا يحس أنه شاعر يهودى ، بل هو شاعر فى المقام الأول ، وقد أجاب أنه لم يتلق أبدًا علومًا يهودية رسمية ، « أعرف فقط أننى أكتب بالروسية طوال حياتى ، وأنا هكذا روسى مائة بالمائة ، وأعرف أننا يجب ألا نحدد وجهة نظرنا كيهود ، يجب أولاً أن نعرف الشرف والإخلاص ، والخير ، وهكذا » .

وقد اخترنا أن نترجم عن الفرنسية اثنتين من قصائد برودسكى كنماذج من شعره ، الأول تحمل عنوان « جزيرة سيراكزوه » كتبها عام ١٩٦٧ حول ليكوميد ملك سيراكوزه ، الملك الأسطورى الذى وضع تقاليد الموت ، وهرب إلى ذاته بعد أن تم القبض عليه فى أثينا ، لقد تخيل أن لوكوميد قد قرض هذه القصيدة وهو يموت .

غادرت المدينة بحكم القدر
غادرت المتاهات ، وهجرت الطواحين
العفنة ، وراحت أريان تفوح .

بين ذراعى باكوس
حول النصر الجميل
رغم تأليه البطل
دائما يندس الموعد
عندما يمر لأعلى ، ذلك الفن
فنجز فرائسنا ، فى كل مكان

وننسحب للأبد إلى أى مكان
وتضيع فرص العودة
الموت هو الموت ويجب أن نقر بذلك
فيا أيها الميت ، عليك النضال ضد الوحوش
وكل من يزعمون أنهم خالدون
فلا تتصفح وجوههم
فهم ماثلون فوق الحاضر
ويمنحنا الله مكافأته
ويبعدنا عن الحشد السعيد
ويحتوينا فى سرية ، ونرحل
نحو العقد الجميل . نحو الأبد
فإذا قدر للإنسان أن يعود
إلى مكان جريمته ، فلن يعرف
عليه العودة إلى حيث ارتكب الخطيئة
لكن القدر مكتوب .
والشعور بالعار عميق
قد توافقا تمامًا .
لم يعد أمامنا سوى الليل
والحيوان العفن والجموع المكدسة .

البيوت والنيران والفراغ المعتم
ويندس أريان وباكوس
لزامًا عليهما أن يعودا يومًا
إلى الدار ، إلى البيت . إلى الملتقى
فمنزلى فوق درب هذه المدينة

وليعلم الله أننى لا أمتلك سوى
وجودى المنشطر ، وتبدو المدينة
لساكنيها . وكأنها تبدأ فى منتصف
العقد ، كى تتهيأ لعتتنا
وتبدأ سيرتنا الأولى .

أما القصيدة الثانية فإن عنوانها « طبيعة صامتة » وقد اخترنا منها مقاطع :

الناس والأشياء يتزاحمون
العيون يمكن أن يجرحها ويوجعها
الناس والأشياء سواء
الأفضل أن تعيش فى الظلام
أجلس فوق مصطبة خشبية
أشاهد المارة
وفى بعض الأحيان أسرة بأكملها
لقد ضقت ذرعًا بالضوء
هذا شهر الشتاء
إنه أول شهور التقويم
سأبدأ الحديث
عندما أضيق ذرعًا بالظلام
أزف الوقت ، سأبدأ
لا يهم بماذا أبدأ
فم فاغر ، الأفضل أن أتحدث
برغم أننى أستطيع ايضًا أن ألوذ
بالصمت .

أوكتافيو باث — ١٩٩٠

أوكتافيوباث

عندما حصل الشاعر المكسيكى أوكتافيوباث على جائزة نوبل فى عام ١٩٩٠ لم يثر أى دهشة مثل الدهشة التى أثارها فوز الكثيرين من قبل ، فباث شاعر متميز ، سبق له أن فاز بجوائز أدبية عالمية عديدة ، وكان من المنتظرين دوما فى قائمة النوبليين ، لذا أحدث فوزه إرتياحًا لدى الكثير من الذين يتابعون سنويًا الفائزين بجائزة نوبل ، وقيل وقتها إن الجائزة قد وضعت فى نصابها . فها هو كاتب مشهور يحصل عليها خاصة أن البعض قد أشار أن أكاديمية استوكهولم تعتبر شهرة الكاتب العالمية بديلاً عن الجائزة فى الكثير من الأحيان .

المفاجأة الوحيدة التى ارتبطت بهذا الفوز هو اللغة التى يمثلها باث ، فقبل عام من فوزه كان كاتب أسبانى هو ثيلا قد فاز بالجائزة ، ولأن فى العالم عشرات اللغات التى يمكن أن يفوز بها كاتب بالجائزة خاصة الصينية والألمانية والإيطالية ، فإن الجائزة قد آثرت أن تمنح لكاتب يكتب بالأسبانية باعتباره من المكسيك أى أن الجائزة عادت ثانية إلى أمريكا اللاتينية التى برزت فى عالم الأدب بشكل واضح فى العقدين الأخيرين .

وقد منح باث الجائزة – كما جاء فى بيان الأكاديمية – باعتباره كاتبًا باللغة الأسبانية ذا منظور دولى واسع ، « إن شعره ومقالاته تنبع من اتحاد صعب ، ولكنه مثمر بين الثقافات مثل ثقافة الهنود الحمر فى زمن ما قبل كولومبس ، والفاتحين الأسبان والحداثة الغربية ، فشعره هو الكتابة بالكلمات وعن الكلمات ، وقد خصصت الأكاديمية ديوانه « متاهة العزلة » من بين بقية أعماله كى تمنحه الجائزة .

ولد أوكتافيوباث فى المكسيك عام ١٩١٤ ، كان العالم الغربى فى تلك الآونة يتمزق . وقد كان جده لأبيه موظفًا عامًا وروائيًا ، وواحدًا من أبرز

الكتاب فى بلاده ، وقد عرف عنه دفاعه عن الهنود الحمر سكان المكسيك الأصليين .

ولذا فإن أوكتافيو قد عرف بيتا يهتم بالثقافة ، ففى المنزل مكتبة كبيرة يتعامل معها الآخرون كأنها قطعة من السحر ، فهى مليئة بالمرايا والستائر ، والدخول إليها أشبه بدخول معبد ، وهذه المكتبة تمثل ثقافتين الأولى أسبانية ، والثانية هندية .

كان والد أوكتافيو محاميًا كبيرًا وثوريًّا ، وهو أحد رجال الثورى المكسيكى إميليانوزاباتا حيث كان يدافع معه عن حقوق الفقراء ، لكن الأب مات ذات يوم فى حادث قطار .

ووجد أوكتافيو نفسه فى رعاية عمته التى راحت تتولى تعليمه ، وكانت تؤمن بأن عليه أن يقرأ ثقافات متنوعة ، كما أصّلت فيه الالتزام بالمبادئ والتقاليد الراسخة التى تنتهجها الأسرة .

وفى سنه المبكرة التهم أوكتافيو كتب هذه المكتبة الضخمة وبدا شغوفًا بالمعرفة ، والتحق بكلية الآداب فى مكسيكو ثم مالبث أن قاطع الدراسة عام ١٩٣٦ ، وآثر أن يدرس فى تعليم نفسه ثم عمل مدرسًا للمدارس الثانوية ، وراح يكتشف أن أساس الحياة هى ثلاثة أشياء : المرأة ، الطبيعة والكلمة ، فعقد صلة قوية مع الأشياء الثلاثة .

وفى نفس العام ، اندلعت الحرب الأهلية الأسبانية . فسافر أوكتافيو إلى هناك ، والتقى بالعديد من الشعراء الذين جاءوا من أمريكا اللاتينية لهذه المناسبة ومنهم بابلونيرودا ، وفاليخو دالبرتى ، ثم مع المخرج السينمائى الأسبانى لوى بونويل . حيث أعلنوا جميعًا فى وثيقة رسمية احتجاجهم على الحرب الأهلية .

وكانت الحرب الأهلية السبب الأول فى إشعال جذوة الشعر لدى أوكتافيوباث . فصدر ديوانه الأول « جذور الإنسان » ، وكان قد سبقت له محاولات لم تلفت له الأنظار ، وبدأ الشاعر كأن الجذوة انطلقت فى داخله ولم تنطفئ ، فراح يصدر فى كل عام تقريبًا ديوانًا جديدًا منها « أصوات من أسبانيا » عام ١٩٣٨ ، و« على ضفة العالم » ١٩٤٢ ، و« متاهة العزلة » ١٩٥٠ ثم « بذور الأنشودة » عام ١٩٥٤ ، و« ماء ورياح » عام ١٩٥٩ ، و« السمندر » ١٩٦٢ ، و« الريح الكاملة » ١٩٦٦ ، و« أشعار المكان » ١٩٧١ ، و« العودة » ١٩٧٦ ، وفى عام ١٩٧٩ أصدر ثلاثة دواوين بأكملها ، ثم كان ديوانه الأخير « خميلة موغلة » عام ١٩٨٣ .

وأوكتوفيوباث من أغزر كتاب عصره إبداعًا ، ليس فقط فى الشعر ، بل هو معروف ككاتب مقال سياسى ، وقد صدرت له كتب عديدة فى هذا الصدد ، منها « المكسيك الأخرى » و« زمن الغيوم » و« القرد النحوى » .

ومن المعروف أن أوكتافيوباث قد عمل فى السلك الدبلوماسى ما مكنه من السفر والإقامة فى بلدان عديدة منها الولايات المتحدة وفرنسا ، وعمل سفيرًا لبلاده فى الهند عام ١٩٦٢ ، ولكنه قاطع السلك الدبلوماسى فى عام ١٩٦٨ عندما أعلن احتجاجه على التدخل السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا وكان هذا رأيه الشخصى وليس الرأى الرسمى .

كانت رحلة أوكتافيوباث إلى أوروبا – كما أشرنا – فى عام ١٩٣٧ بمثابة الجذوة التى أشعلت فيه شرارة الإبداع ، وفى تلك الرحلة التقى بالكثيرين من رموز السريالية فى تلك الآونة ومنهم أندرية بريتون ولوى بونويل فاعتبر نفسه واحدًا منه ، وبدأ يكتب على طريقتهم ، وحول هذه العلاقة يتكلم عن بريتون فى حديث طويل أجرته معه مجلة « الأكسبريس » فى ٢٨ يونيه ١٩٩١ قائلا :

« إن أى إنسان ، الإنسان الكامل ، يجب أن يتم إغراؤه ليجد الروابط بين المتخصصين . من الصعب على المرء أن يعيش فى المجتمع المعاصر بكل اتساعه ، وتعقيداته ، إذن فكيف يتصرف ؟ ليس لدىّ الحل ، ولكن لدىّ القناعات إنه يجب أن نفعل ذلك ، لا أرى كيف يمكن أن نرى الفن الحديث دون أى معايير كبيرة سائدة مثلما فى العلوم فعندما نفتقد هذه المعايير أحيانًا ، فإننا نفاجأ بمزيج من الاضطراب واختلاط المفاهيم .

وعن الشعر الذى حصل من أجله باث على جائزة نوبل فإنه يرى أن مهمة الشاعر هى تحويل الشعور إلى إدراك ، ولذا فإن على القصيدة أن تكون خلاقة وليست وصفية ، وإنه من المهم أن يصف الشاعر ذاته وتجربته الخاصة فى أدبه ، فكتابة القصيدة تعنى خلق شخصية الفرد .. أن يكون أبا ، أن يكون ذاته المحررة وليست تلك الشخصية التى يقودها فرد آخر ، وإذا كانت القصيدة مرآة فإنها لا يجب أن تكون مرآة العالم الموجود ، بل يجب أن تكون مرآة سرية لعالم غير مرئى تقلبه كى يصبح مرئيًا على الرغم من قصر مدة بقائه ، وعلى الشاعر أن يحاول ببطولة السيطرة على الدوامة على الرغم من إدراكه عمقها .

« ولذا فإن الشاعر يلجأ إلى الطبيعة ومكوناتها وخاصة إلى المرأة ، وهو يؤمن « أن الطبيعة هى أجمل القصائد ، أريد أن أقول إننى لا أستخدم الكلمات الأكثر شفافية فحسب . ففى أحيان كثيرة أستخدم الكلمات الأكثر ضراوة .. لا أستطيع الخضوع لأية ضوابط أو عبارات ميتة . وأحب كثيرًا الكلمات التى تشبه البرق .. إنها تحطم الليل فى لحظة ما . لكنها تفجر الضوء » . ويؤمن الشاعر أوكتافيو أن الطبيعة مهما بدت ثابتة فإنها تتغير ، وأن الكثير من مكونات هذه الطبيعة يموت حتمًا ، فالموت موجود فى كل مكان ، الذين يزرعون قصب السكر والذين يطلقون الصواريخ العابرة للقارات ، جميعهم شركاء فى المعاناة والأنين ، ويقول فى حديث نشرته جريدة العرب – ٥ يونيه ١٩٨٧ – أن الأدب يمكن

أن يشكل تلك الحالة التى يلجأ إليها عندما نشعر بأننا نتعرض للموت الكامل ، أجل الأدب هو موقف ضد الموت ، وأنا أقصد تحديدًا ذلك الموت الذى يأتى من غير مكانه الصحيح » .

وقد تحدث باث ، فى عدد مارس ١٩٨٩ ، من صحيفة « ماجزان ليتريز » ان « الشعر العربى قد لعب دورًا كبيرًا فى تكوينه . من بين قراءاتى فى سنوات المراهقة . أننى تأثرت كثيرًا بكتيب يضم مختارات من الشعر العربى الأندلسى ، وما زلت أتذكر صورًا رائعة كان يضمها هذا الكتيب ، وكتب الخطابات شدتنى هى الأخرى . بوسعى القول : « إن الأدب العربى كان مصدر إلهام لفترة معينة » .

ويؤمن أوكتافيو أن الشاعر ليس من يتكلم فحسب ، بل من يصغى أيضًا . وأود أنا نفسى أن أضع علامة استفهام أمام الحالة التى نجد أنفسنا فيها أمام فراغ ، أمام غياب تام للمشاريع . على أية حال دورى لا يقتضى أن أضع مشاريع ، فالشعراء لم يفعلوا ذلك قط وإنهم يسعون للتعبير عن الواقع كلامًا . بيد أنهم ليسوا بآلهة فى حال من الأحوال ، وهذا من حسن الحظ ، أما فيما يتعلق بى فأنا أرفض « أن أكون حكيمًا لشىء مهما يكن » .

وعن لغة الشاعر يقول أوكتافيوباث لصحيفة « كانزان » الأدبية فى حديث أجرى معه فى عام ١٩٧٧ إن العالم هو نسيج من اللغة رغم أن اللغة هى إلهام من الله ، فالكلمات هى المعبر الأول عن الزمن الذى نعيش فيه ، ولذا ، فإنه عندما أصبحت لغة الكاتب بعيدة عن لغة الناس فإن الأدب قد كف عن أن يشغل مكانًا متميزًا فى حياة الناس ، لذا فإن مهمة الأدب كانت فى الخمسينات والستينات أكثر فعالية مما هو عليه الآن » .

ويرى الناقد د . ب . جالجر فى كتاب « أدب أمريكا اللاتينية » أنه لذلك فإن شعر أوكتافيوباث يعتبر محاولة لبعث الحياة فى الروح الميتة .. أو فى الحجارة ، تلك الحجارة الصمّاء . وعلى هذا الأساس فإن شعر باث محاولة لقلب صميم الحجارة وتحويلها إلى ضياء » .

وفى الحديث الذى أجرته معه مجلة نيوزويك – ١٢ أكتوبر ١٩٩٠ – يقول باث : « إنه يفخر لأنه نال جائزة نوبل كشاعر ، وليس ككاتب مقال لأن الشعر بالنسبة لى أهم شىء ، هو النبع ، والأصل لكل أنشطتى الأدبية أن أكون شاعرًا ، فأنا لم أفكر قط فى بداية حياتى أن أكون كاتبًا أكثر فأكثر ، وأنا أكتب المقالات كنوع من الشعر ، وهذه عادة من الشعراء الذين يتغنون فقط ، لكن البعض الآخر من الشعراء – خاصة الشعراء المحدثين ، عدا ويتمان – يحاولون أن يحاكوا الشعراء الآخرين ، كى نفهم منهم أنهم يكتبون الشعر . وقد تعلمت أن على الشاعر أن يكون له عقل ، وأيضًا يكون له شعر بؤرى .

« وشيئًا فشيئًا فإن هذه الأهمية فى الشعر للكتابة فى أمور القضاء ، وللتفكير ، وللتحويل قد بدأت فى التغير إلى نوع آخر من الظاهرية ، فأنا مكسيكى ، وقد اكتشفت أننى مكسيكى عندما كنت فى الولايات المتحدة أثناء شبابى ، أثناء الحرب ، فبدأنا لا نتكلم الإنجليزية ، ورحنا نتضارب مع الأطفال الآخرين ، وعندما عدت إلى المكسيك ، كنت أقوم بنفس المعارك لنفس الأسباب ، كنت فى الرابعة عشر من عمرى ، ولم أستطع أن أفهم ذلك ، علمتنى هذه التجربة كيف يكون المرء غريبًا فى وطنه ، ولذا بدأت أسأل نفسى من أنا ولماذا أنا مكسيكى ؟ وهكذا بدأت فى كتابة أول كتبى النثرية » .

وقد اقتطفنا من قصيدة « صحراء » التى ترجمها طلعت شاهين فى جريدة الحياة (١٢ أكتوبر ١٩٩٠) ما يلى :

أسطورة
أزمنة من النار والهواء
مراهقة من الماء
من الأخضر إلى الأصفر
من الأصفر إلى الأحمر
من الحلم إلى السهر
من التمنى إلى الفعل
لم تكن هناك إلا خطوة تتقدمها أنت
بلا جهد
والحشرات جواهرجية
والدفء ينام على طرف البحيرة
المطر صفصاف محلول الشعر
شجرة تنمو على كتف
الشجرة كانت تغنى ، تضحك وتتنبأ
تكهناتها تملأ الفضاء بأجنحتها
كانت هناك معجزات صغيرة تسمى طيور
الكل كان كل شىء .
كل شىء كان الكل
كانت هناك كلمة عظيمة لا مقابل لها

obeikandl.com

كلمة كالشمس .
تحطمت فى يوم ما إلى شظايا صغيرة جدًّا
إنها كلمات اللغة التى نتحدثها
شظايا لم تلتئم أبدًا
مرايا محطمة
ينظر فيها العالم مهزومًا

* * *

امرأة من حركة النهر
امرأة من شفافية إشارات الماء
صبية من الماء
نقراً ما ذهب ولن يعود
بعض الماء حيث تشرب العيون
حيث ترتوى الشفاة بجرعة واحدة
الشجر
السحاب
البرق
أنا والصبية
الربيع والصبية
من ساقه الحارة يتراقص
العضل المتردد .

obeikandl.com

ديريك والكوت

حينما حصل الشاعر الترنيدادى ديريك والكوت على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٩٢ ارتسمت الدهشة من جديد لحصول شاعر مجهول ، من منطقة نائية فى العالم على الجائزة . ولا يعنى هذا بالمرة أن والكوت شاعر غير متميز ، أو أن المناطق النائية والبعيدة جغرافيا عن أوروبا ، لا يمكن أن تفرز مبدعًا جيدًا ، بل إن ما رددته بعض الصحف البريطانية صباح إعلان اسم الفائز بالجائزة وخاصة جريدة هيرالد تريبون ، يؤكد أن فوز والكوت بالجائزة فى هذا الوقت بالذات هو نوع من التكريم ، والاحتفالية بمناسبة مرور خمسة قرون على اكتشاف القارتين الأمريكتيين ، فمنذ قرابة خمسمائة عام وصل كريستوفر كولمبس إلى منطقة قريبة من بحر الكاريبى ، وفى الثانى عشر من أكتوبر ١٩٩٢ ، على سبيل المثال فى مسألة الاحتفاليات ، عرض فيلم روائى ضخم فى جميع دور العرض العالمية عن كولمبس بهذه المناسبة .

وإذا كانت الأنظار قد راحت فى تلك الآونة إلى الروائى الترنيدادى « ف . س . نايبول » الذى يعيش فى المملكة المتحدة منذ نيف وثلاثين عاما ، كروائى منتظر أن يحصل على الجائزة ، فإن عام ١٩٩٢ كان هو عام الشعراء فى جائزة نوبل ، التى تمنح بالتبادل بين روائى وشاعر ، لذا راحت الجائزة إلى والكوت ربما لتضيع إلى الأبد من نايبول ، أو ربما ليحصل عليها فى السنوات القادمة كروائى بريطانى الجنسية .

كما طرح فوز والكوت بالجائزة أيضًا مسألة اختفاء الأسماء العظيمة والموهوبة فى فن الشعر ، فنى مجال الرواية ، على سبيل المثال ، فإن هناك الكثيرين الذين ينتظرون دورهم ، بل إن هناك الكثيرين من الذين يستحقون الجائزة ، يرحلون دون أن ينالوا شرف الحصول عليها . فوالكوت على مستوى العالم شاعر مجهول ، لم يترجم خارج منطقة اللغة التى يكتب بها ، ونقصد هنا أنه باعتباره من جزر الهند الغربية ، فهو يتكلم ويكتب باللغة الإنجليزية ، وهذه البلاد التابعة للكومنولث

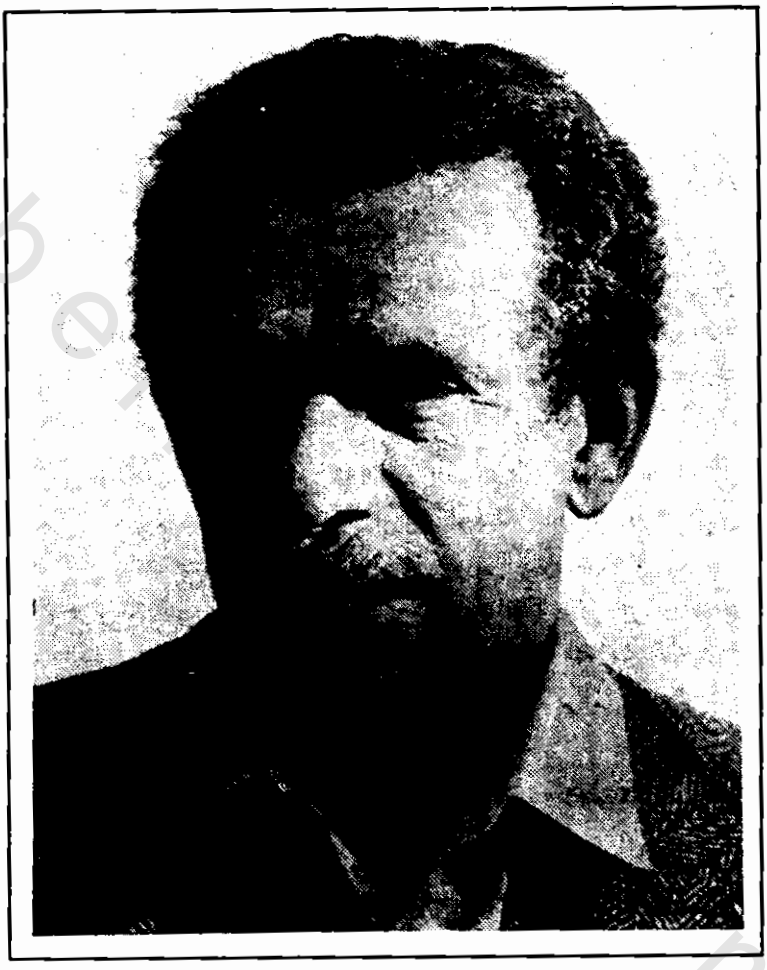

ديريك والكوت – ١٩٩٢

البريطانى تتبع الثقافة الإنجليزية ، ووالكوت غير معروف على سبيل المثال فى بلد مثل فرنسا ، وهو الذى يهتم دومًا بترجمة أغلب آداب العالم المعاصر بما فيها الثقافة العربية .

ووالكوت فى ذلك أشبه بكل من شيزلاف ميلوش ، ويارووسلاف سيفرت ، ويوسف برودسكى الذين كانوا بمثابة نكرة وكائنات مجهولة صباح الإعلان عن الجوائز ، فإذا حلت الظهيرة أصبح كل منهم عالميًّا .

وفى هذا المضمار فإن من الجدير بالإشارة أن نقول : إن أبرز شعراء العالم قد رحلوا دون أن يحصلوا على الجائزة مثل رينيه شار ، وجاك بريفير ، وقد يبين هذا مدى الحرج الذى يجد فيه أعضاء أكاديمية أستكهولم أنفسهم عند إعلان الجائزة ، فالأسماء التى تستحق الجائزة من الشعراء العالمين قليلة للغاية .

وبفوز والكوت بالجائزة عام ١٩٩٢ ، يتضح مدى الاهتمام الذى توليه أكاديمية إستكهولم للثقافات البعيدة عن أوروبا ، وبصفة خاصة الثقافة الأفريقية ، فها هو رابع كاتب ينتمى إلى الثقافة الأفريقية يفوز بالجائزة منذ عام ١٩٨٦ ، والثقافة الأفريقية التى ينتمى إليها الشاعر هنا هى ثقافة الجذور التى جاء منها أجداد الكاتب ، وقد امتزجت هذه الثقافة بالعديد من الثقافات الأخرى ، فأصبحت مزيجًا جديدًا ، يسمى فى بعض منه بثقافة الكريول Creol وهى كلمة تعنى المزج بين الثقافة الأوربية وثقافات أخرى .

ورغم ذلك فإن هذه الثقافات البعيدة ، ومنها بالطبع الأفريقية تنطق باللغة الإنجليزية عند سونيكا ، ونادين جورديمر ، ووالكوت .

وهناك سمة فى الأدب الذى يمثله والكوت ، فهو ثقافة أقلية ، وسط أقليات عديدة أخرى تسكن جزء الانتيل الصغرى ، أو الهند الغربية التى يسكنها الشاعر ، حيث تعيش هناك فئات اجتماعية عديدة جاءت من أماكن متفرقة من العالم ، وفى الغالب فإن إبداع والكوت يعبر عن الأقلية التى يمثلها قبل أن يعبر بشكل عام عن الثقافة فى الهند الغربية ، ولكن اللغة التى يتكلم بها الكاتب تعبر عن

ثقافة المستعمر القديم الذى يربط مستعمراته السابقة فى اتحاد واحد هو الكومنولث .

وفى جزر الأنتيل الصغرى يعيش أفارقة وهنود ، وبعض سكان جامايكا ، وهناك خمسة وعشرون مليونًا من البشر جاءوا من الهند عبر أفريقيا ، ولأنهم بلا جذور ، فإن الهجرة والانتقال سمة غالبة لديهم ، وتبدو واضحة فى آدابهم ، ولعل هذه السمة موجودة بشكل واضح فى روايات ف . س . نايبول أكثر من شعر ومسرحيات والكوت ، فنحن دائمًا أمام أشخاص لديهم جذورهم الهشة ، ورغبتهم الأبدية فى الرحيل ، وعلى سبيل المثال فإن نايبول قد هاجرت أسرته إلى موزمبيق ، ثم إلى ترينداد ، ورحل بعد ذلك وهو طالب إلى المملكة المتحدة ، أما والكوت فقد اختار الإقامة نصف السنة فى الولايات المتحدة حيث يعمل بجامعة بوسطن .

ووالكوت مثل أغلب الشعراء فى هذا العصر ، ومثل بعض الذين سبقوه فى الفوز بجائزة نوبل ، ليس وفيا للشعر تمام الوفاء ، بل إن شهرته ككاتب مسرحى تفوق شهرته كشاعر ، وإذا كنا قد رأينا وول سونيكا قد نال الجائزة كشاعر ، وما أقل شعره ، فإن نفس الأمر ، بالضبط ، يتكرر بالنسبة لوالكوت ، فإبداعه فى المسرح ، وخاصة المسرح الشعرى أكثر من إبداعه فى مجال كتابة القصائد ، وسوف نجد أنه حتى عام ١٩٦٢ ، فإنه لم ينشر سوى مجموعة من القصائد المتناثرة فى كتب ، حيث أن ديوانه الأول « ٢٥ قصيدة » قد نشر وهو فى الثامنة عشرة ، أما ديوانه الثانى المنشور عام ١٩٦٢ ، فقد جمع فيه مجموعة القصائد التى كتبها بين عامىّ ١٩٤٨ و ١٩٦٠ .

ولد الأخوان التوأمان ديريك ، ورودريك والكوت فى الثالث والعشرين من يناير عام ١٩٣٠ فى جزيرة سنتا لوتشيا ، لأم سمراء قادمة مع أسرتها من قارة أفريقيا والأب أبيض من جزر الهند الغربية (جامايكا) ، وقد كان الأب

يعمل رسامًا ومسرحيًا ، أما الأم فكانت تهتم بالمسرح ، وقد نشرت عدة نصوص مسرحية لاقت إقبالاً فاترًا من العاملين فى الوسط المسرحى فى جزر الهند الغربية .

وقد تلقى ديريك تعليمه فى جامعة جامايكا ، وعقب انتهاء الدراسة عاد إلى ترينداد ، وهناك استكمل حياته الأدبية ، ففى عام ١٩٤٨ نشر ديوانه الأول على نفقته الخاصة تحت عنوان « ٢٥ قصيدة » . وكان آنذاك فى الثامنة عشر من عمره .

وتبعًا لتشجيع أخيه رودريك انتقل الشاب إلى الاهتمام بالمسرح ، وفى عام ١٩٥٠ نشر مسرحيته الأولى « هنرى كرستوف » ، وكما جاء فى جريدة الشرق الأوسط فى ٩ أكتوبر ١٩٩٢ ، إن الشقيقين : « كانا يعملان على خشبة مسرح نقابة سانتا لوتشيا للثقافة والفنون . وكانت مسرحية والكوت الأولى تحكى وباسلوب شعرى سيرة القائد الهايتى هنرى كرستوف التى قدمت على مسرح النقابة ، كما أن المسرحية قدمت بعد عامين فى لندن ، وعلى أثر الاستجابة المدهشة للجمهور عاجل وانجز عمليه المسرحيين : « عرض الأحداث » والمسرحية الشعرية « هنرى درينر » .

« ومن مسرحياته الأخرى لهذه الفترة « تى – جان واخوته » ١٩٥٨ ، « وستة تحت المطر » ١٩٥٩ . والمسرحية الأخيرة هى و « بحر الديفون » قدمتا فى نفس العام فى لندن على قاعة مسرح رويال كورت ، أما نتاجاته الشعرية فهى صادرة بالتوازى مع نتاجاته المسرحية ، وجدت لها صدى واسعًا فى إنجلترا ، وبالأخص مجموعته الموسومة بـ « أمسية خضراء قصائد ١٩٤٨ – ١٩٦٠ (١٩٦٢) » . وانتزع اعتراف الأوساط الثقافية فى أنه الشاعر الأول لجزر الهند الغربية ، والذى دفعه لاحقا لإصدار مجلده الشعرى الضخم المتضمن « المنبوذ » قصائد ١٩٦٥ ، و « الدوامة » قصائد عام ١٩٦٩ .

وقد ظل والكوت مؤرقا بين المسرح والشعر ، لذا وضع معادلته الصعبة حين صاغ بعض مسرحياته فى إطار شعرى ، مثلما فعل فى « هنرى درينر » عام ١٩٥٦ ، ثم « القلعة الساحرة » عام ١٩٧٠ . و « الرجل الموسوس » عام ١٩٧٤ . و « مملكة التفاح المتألقة » عام ١٩٧٨ ، و « آه يا بابليون » عام ١٩٧٨ ، وفى ١٩٨٤ نشر والكوت أعماله الكاملة . ثم جاءت رائعته الكبرى « أوميروس » عام ١٩٩٠ .

تقول جريدة لوموند فى ٩ أكتوبر ١٩٩٢ : إن إبداع والكوت مثل الأرض التى عاش فوقها ، فكلاهما أشبه بأرخبيل متعدد الثقافات واللغات والحضارات ، إنه أشبه بقطع الموزاييك ، ولا شك أن مثل هذه الثقافة كانت تؤرق الأوربيين كثيرًا فى بداية عصر النهضة ، حيث سعت كل دولة إلى صنع ثقافتها الخاصة ، ولعل كل طائفة وأقلية فى جزر الهند الغربية تعيش الآن على أمل أن تكون لها هويتها الثقافية المحددة .

ظل والكوت مقيمًا فى بلاده بصفة دائمة كمواطن حتى عام ١٩٨٤ ، حين قامت إحدى دور النشر البريطانية بطبع أعماله الكاملة ، وهنا عرضت عليه جامعة هارفارد الأمريكية أن يقوم بالتدريس لطلبتها ، ولم يتردد الكاتب أن ينتقل إلى الولايات المتحدة ، وهناك التقى بالشاعر الروسى يوسف برودسكى ، الذى يقوم بتدريس الأدب فى نفس الجامعة . وعقدت صداقة قوية بين الرجلين لدرجة دفعت برودسكى أن يكتب يومًا ، أن والكوت هو « أحسن شاعر ينطق باللغة الإنجليزية فى هذه الأيام » .

جاء فى حيثيات منح والكوت جائزة نوبل « أن شعره ذو إشراق عظيم تعززه رؤية تاريخية ، هى محصلة التزام متعدد الثقافات » ، ولا شك أن هذا التعدد قد أفاد الكاتب ، كما سبقت الإشارة ، فهو رجل ليس أسيرًا لعصر دون غيره ، ولا لمكان دون آخر ، فهو على سبيل المثال ، يعشق الميثولوجيا اليونانية القديمة ، ولكنه يرى هذه الميثولوجيا برؤيته الذاتية ، حتى أسماء أبطال الأساطير فإنه يكتبها

كما تجىء لغته ، ولذا فإن لغته الشعرية تجمع بين الإنجليزية الكلاسيكية والمعاصرة ، وبين لغات الكريول ، واللغة الفرنسية ، وقد بدا هذا واضحًا فى مسرحيته الشعرية « أوميروس » التى نظمها بلغات متعددة .

وهذه المسرحية بمثابة رحلة يقوم بها شخصان من ترينداد فى طريق العودة إلى الوطن الأم ، إلى أفريقيا ، إنهما بذلك أشبه باودسيوس الذى عليه أن يعود إلى بلاده بعد أن انتهت حرب طرواده ، وبدلا من بحر إيجه عند هوميروس . فإننا فوق بحر الكاريبى عند والكوت .

والراوية فى هذه المسرحية يدعى أوميريس ، لاحظ تغيير الحروف عن اسم هوميروس – وهو ينشد على سبيل المثال :

أغنى من أجل أشيل . ومن أجل ابن أفولاب .
الذى لم ينزل أبدًا بالمصعد
والذى لا يملك جواز سفر ، منذ أن عرفت الافق مكانًا لها .

وتتكون المسرحية من أربعة وستين مقطعًا ، وهناك مسوخ عصرية مثل المسوخ التى قابلت اودسيوس أثناء عودته من طرواده ، وكما أشرنا فإن هذا النوع من النصوص من الصعب ترجمته ، وعلى سبيل المثال . فإن البيتين الأوليين من المقطع الذى نترجمه هنا مكتوبان باللغة الفرنسية ، أما الباقى فباللغة الإنجليزية :

سعيد مثل أوليس
أو الكابتن موكارد
بينما هو يبحر فوق المياه
ها هى بنيليوبى المارتينية
ترقص فوق مقعد من أخشاب الغابة .

ومن المعروف أن هذه المسرحية قد فازت بجائزة ، أدب الكومنولث ، المعروفة تحت اسم « و . هـ . سميث » .. عام ١٩٩١ ، وطالما أننا نقدم والكوت كشاعر ،

فمن المهم أن نقدم بعضًا من نماذج شعره ، فهذه قصيدة منشورة فى جريدة « الحياة » فى ١٤ أكتوبر ١٩٩٢ يقول فيها :

أجوب ، ببطء موكب الجنازة
شوارع ميتة فى أول
ميناء ويموت فدى السياحة :
فريدر يكستر التى طرقتها الشمس أتذكر الحياة التى لم يفسدها الحلم
الأمريكى
لكنى عاجز ، أنا ابن الجزيرة الساذج ،
عن تحسين تبادل إمبراطوريتنا الحديثة المتحدثة
للكاميرات والساعات والعطور والبراندى
لقاء تلك الحياة الطيبة عديمة القيمة
التى أخلت مكانها للجريمة فى شوارع ابتليت بالشمس وعصفت
باقواسها الحجرية وساحاتها هيستريا
الشائعات ، ملكية مشتركة تغرق
فى الفراغ ، تراكم الغبار على ضفاتها
التى تؤثها ذبابة مرصعة تئز فوقها
تدور الروليت الصدئة
وتبدأ التجارة النشطة كل صباح
لتعكر المياه الخضراء حول الرصيف الداخل فى البحر
وتتجه إلى حيث بنوك الفضة

وفى جريدة الشرق الأوسط - ٩ أكتوبر ١٩٩٢ - نشرت قصيدة تحت عنوان : « أغنية لشجرة الأرز »

هكذا ، فى مشرق يوم ، قطعناهم إلى زوارق صغيرة
وابتسامات ودودة للسياح ، من يحاولون التقاط أرواحهم بكاميراتهم
مرة ستجلب الرياح الأنباء
أوراقها بدأت ترتعش ، أشجار الغار
لحظة يهوى فاس ضوء الشمس على أشجار الأرز يأتون
لأن بمقدورهم رؤية الفأس فى أعيننا
الريح ترفع نبات السرخس ، صوته يشبه البحر الذى يطعمنا طول حياتنا .

مر صيادوا السمك سألوا والسرخس أحنى رأسه مجيبًا (نعم) الأشجار يجب أن تموت وكذلك القبضات تتجمد على ستراتنا .

كان وجود المرتفعات باردًا وتنفسنا يشكل ريشًا فوق قبعته مثل الضباب .
تعبر الصعاب ، وحين تعود ، تمنحنا الشجاعة لتتحول إلى قتله
رفعت الناس وتوسلت للقوة فى يدى
لكى تجرح شجرة الأرز الأولى
ولكنى تجرعت كأسا أخرى . ثم تقدمنا .

كانت تلك جولة فى عالم الشعراء الستة الذين نالوا جائزة نوبل منذ بداية الثمانينات ، وكما رأينا فإنهم جميعًا من ثقافات مختلفة ، وحضارات متعددة ، ولكن الكلمة هى سلاح كل منهم فى التعبير عن ضميره وضمير أمته وثقافته .